اللغة العربية والتحديات المعاصرة

The Arabic Language and Contemporary Challenges.

“阿拉伯语言与当代挑战”。

أ.د./ **محمود أحمد نحلة**[1]

أستاذ العلوم اللغوية، والوكيل السابق للدراسات العليا والبحوث بكلية الآداب– جامعة الإسكندرية

للغة العربية منزلة رفيعة بين اللغات تتمثل فيما يأتي:

1. اللغة العربية أطول اللغات الحية عمرا، وأهم اللغات السامية الحية، وأحفظها لخصائص السامية الأم، وأثراها أدبا وفكرا وعلما، وأشدها تأثيرا في نفوس أبنائها ومشاعرهم. وهي لغة قياسية على نحو فريد؛ بشهادة من تعلمها من الناطقين بغيرها؛ فهذا ديفيد جستس – وهو لغوي أمريكي مشهور– يضع كتابا ترجم إلى العربية بعنوان : ‘‘محاسن العربية في المرآة الغربية ’’ يعقب فيه على تصنيف معهد الخدمة الخارجية التابع لوزارة الخارجية الأمريكية لها بين أصعب اللغات في العالم قائلا : ‘‘ اللغة العربية من حيث البنية لغة مطردة ومصقولة بشكل غير معهود. ’’ ثم قال : ‘‘ أما أسباب صعوبة العربية فتقع خارج اللغة بوصفها نظاما مجردا، وهي أسباب تاريخية وأسلوبية واجتماعية.’’

2. كانت اللغة العربية، ولا تزال، واحدة من لغات الحضارات الكبرى في العالم؛ فقد تبوأت في القرن الثامن الميلادي مكانتها بجانب اليونانية واللاتينية معبرة عن الحضارة الزاهرة في العصور الوسطى، وظلت طوال العصر الذهبي للإسلام لغة رفيعة تستخدم في كل المجالات الدينية والثقافية والإدارية والعلمية، واستطاعت ان تنقل التراث العلمي والثقافي والحضاري لهذه اللغات من خلال حركة كبرى للترجمة شجعتها سياسة الخلفاء؛ حتى أصبح هذا التراث على مد اليد مترجما إلى العربية ومضافا إليه ما قام به العلماء المسلمون من شروح وإضافات؛ فأصبحت لغة عالمية يسعى إلى تعلمها أبناء الشعوب الأخرى، وظلت ذات تاريخ متصل يمتد من العصر الجاهلي، حتى العصر الحاضر.

3. ارتبط الإسلام منذ ظهوره باللغة العربية، والقرآن الكريم عند كل المسلمين معجزة لغوية تتأبى على الترجمة؛ فكان على أبناء الشعوب الإسلامية – وعددهم يقارب المليار مسلم – أن يتعلموا اللغة العربية ليتمكنوا من قراءة القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وإقامة شعائر الدين. وظل الوعي بها والحرص عليها أمرا لايمكن التفريط فيه عند العرب والمسلمين جميعا. وقد أثرت اللغة العربية تأثيرا عميقا في لغات كل الشعوب التي اعتنقت الإسلام ؛ فقد كان لها تأثير كبير في الفارسية والتركية والأردية والمالوية والبنغالية والهوسا والسواحيلية؛ إذ دخلت إليها كلمات كثيرة وتراكيب استعارتها من اللغة العربية؛ لا تقتصر على الجوانب الدينية،

---

[1] **ملحوظة رئيس التحرير**: الأستاذ الدكتور العلَّامة/ "**محمود أحمد نحلة**" هو الوكيل السابق للدراسات العليا والبحوث بكلية الآداب– جامعة الإسكندرية، كما عمل سيادته مديراً لمركز تعليم اللغة العربية للأجانب بالكلية، ومديراً لمعهد الدراسات اللغوية والترجمةن وأستاذاً زائراً بجامعات عربية وأوربية وأمريكية،ورئيساً لتحرير مجلة الكلية؛ كما أن سيادته محكِّم في جوائز محلية وعالمية وعضو في لجنة اختيار الفائز ببعض هذه الجوائز، وعضو بمجلس أمناء مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، وعضو باللجنة الدائمة لترقية أعضاء هيئة التدريس بالمجلس الأعلى للجامعات المصرية، ومُحكِّم في كثير من البحوث المقدمة للنشر في مجلات علمية محكمة؛ أشرف –ولا يزال– على كثير من رسائل الماجستير والدكتوراه وشارك في مناقشة كثير منها، وشارك في كثير من المؤتمرات العلمية المحلية والعالمية باحثاً ومناقشاً ورئيساً للجلسات؛و لسيادته إنتاج علمي غزير يقوم على علم راسخ بالتراث اللغوي عند العرب والنظريات اللغوية الحديثة.

بل تمتد لتشمل المجالات الحضارية والسياسية والقانونية والتجارية والإدارية والعلمية والتعليمية. ولا تزال بعض هذه اللغات تكتب بحروف عربية حتى الآن. ومعرفة العربية لازمة لقراءة نصوص التركية العثمانية، والفارسية، والأردية، والكتَّاب في هذه اللغات يستخدمون المفردات والصيغ العربية استخداما واسعا.

4 . اللغة العربية منذ عام ١٩٧٤ إحدى اللغات الرسمية الست في الأمم المتحدة ومنظماتها المتخصصة مثل اليونسكو، وما تفرع عنها مثل "ألكسو" و"إيسسكو"، ومنظمة الصحة العالمية، ومنظمة الأغذية والزراعة، والمنظمة العالمية للطيران المدني، ومجموع هذه اللغات الست يمثل نحو ٤٢٪ من سكان العالم. يضاف إلى ذلك أنها أيضا لغة رسمية في منظمات إقليمية مثل منظمة المؤتمر الإسلامي، ومنظمة الوحدة الأفريقية.

5 – عدد سكان الوطن العرب يقترب من نصف المليار أغلبهم من الشباب ؛ ومعنى ذلك أن اللغة العربية تشغل موقعا متقدما في ترتيب لغات القمة في العالم التي يبلغ عددها نحو سبعة آلاف لغة من حيث عدد مستعمليها لغة أولى. هذا على المستوى العالمي، أما على المستوى الإقليمي فهي في المرتبة الأولى بين اللغات الكبرى التسع المستعملة في حوض البحر المتوسط، وفي المرتبة الأولى بين اللغات في القارة الإفريقية

6 – العالم العربي مهد الحضارات ومكان نزول الأديان الثلاثة، وبه أشهر الآثار والمزارات الدينية والحضارية، ويحتوي على ثلثي احتياطي البترول في العالم، وقد جعل كل ذلك للناطقين بالعربية تأثيرا في الأحداث العالمية؛ لما لهم من وزن ثقافي وحضاري وديني وسياسي واقتصادي وإستراتيجي.

والعرب جميعا يعدون اللغة العربية هي الرابطة القومية التي تربط بينهم أرضا ودينا وعرقا وتراثا وتاريخا وثقافة وحضارة. وهي لغة كثير من مصادر المعرفة وإنتاج الثقافة.

٧– لم تنفصل اللغة العربية في سيرورتها التاريخية التي يعز لها النظير عن تراثها منذ العصر الجاهلي حتى الآن؛ إذ كانت ولا تزال لسانه الناطق ومستودعه الحافظ. وقد استطاع العلماء منذ عصر التدوين وما تلاه أن يجمعوا تراثها الأدبي في العصر الجاهلي؛ ليكون زادا لهم في فهم القرآن وبيان معانيه وفقه أساليبه وتبين أوجه إعجازه، وليكون مصدرا أساسيا من مصادر الاستشهاد فيما استنبطوه من قواعد اللغة نحوا وصرفا، ومن ضروب البلاغة وأسرار البيان وبدائع البديع. وكان للقرآن الكريم أثره في إثراء العربية ألفاظا ومعاني وتراكيب وأساليب، ونشأت لخدمته علوم سميت علوم القرآن، كما نشأت لخدمة الحديث النبوي الشريف علوم سميت علوم الحديث. ولما كان القرآن الكريم نصا لغويا فقد نشأت في ظلاله الوارفة علوم اللغة، كما نشأت في ظلاله بوصفه المصدر الأول للتشريع علوم الشريعة، وبوصفه عقيدة علوم التوحيد والكلام، ثم اتسعت مناحي الثقافة لتشمل من بعد كتب الأدب والمعارف العامة، وتقويم اللسان والسير، والتواريخ، والمعجمات اللغوية، ومعجمات الأعلام والبلدان. ولهذا لم تكن اللغة العربية لغة دينية فحسب، بل كانت لغة علم وأدب وثقافة ووسيلة حياة.

٨– حين خرجت العربية من الجزيرة العربية ومعها القرآن الكريم كتاب عقيدة وشريعة ومنهج حياة استجابت في مرونة وقوة لمطالب الحياة الجديدة لشعب منتصر وشعوب ذات حضارات عريقة. ولم يكد يمضي قرن من الزمان أو يزيد قليلا حتى هجرت هذه الشعوب لغاتها الوطنية طوعا، واتخذت من العربية لسانا لها، كما تركت دينها طوعا، واتخذت من الإسلام دينا لها، ولم يكتفوا بذلك بل نبغ من بينهم علماء أعلام قدموا لهذه العربية خدمات جليلة في اللغة والنحو والتفسير والقراءات والفقه وأصوله؛ بل تجاوزوا العلوم الدينية إلى علوم الطب والفلك والكيمياء والرياضيات وغيرها.

٩- لنظام الكتابة العربية خصائص تميزه أهمها أن للصوت اللغوي الواحد حرفا كتابيا واحدا أو بتعبير المحدثين للفونيم الواحد جرافيم واحد. والجرافيم الواحد له ألوجرافات تتنوع صورها في بداية الكلمة ووسطها ونهايتها وإفرادها، ولكنها تظل صورا لحرف واحد يسهل تعرفه ونسبتها إليه. ويرتبط نظام الكتابة العربية ارتباطا وثيقا بأنظمتها الصوتية والصرفية والنحوية، وله قوة ذاتية مستمدة من ارتباطه بالقرآن الكريم، وبتماسكه الداخلي، واتساقه، جعلته يرافق الإسلام والعربية في انتشارهما في أرجاء الأرض حتى أصبح الآن ثاني الأنظمة الكتابية انتشارا في العالم. وظل باقيا قرونا متطاولة يسجل التراث الأدبي والثقافي والعلمي والمعرفي للغة العربية دون ان يصيبه تغيير جوهري تستغلق به قراءة هذا التراث في كل عصوره؛ فقد استطاع الباحثون العرب أن يحققوا مخطوطات مضى عل كتابتها مئات السنين، وينشروها في الناس. كما جعلته يصمد لكل محاولات التشويه والتبديل والإقصاء. وقد واجه نظام الكتابة العربي في عصور الطباعة والتكنولوجيا تحديات كبيرة بسبب طبيعته الوصلية، وتعدد أشكال الحروف فيه، واتجاه كتابته من اليمين إلى اليسار، واستطاع أبناؤه التغلب عليها جميعا. وفضلا عن ذلك فإن له قيمة جمالية نفيسة؛ فالخط العربي بأنواعه المختلفة وتجلياته الإبداعية يعد واحدا من أجمل الفنون وأندرها في العالم؛ إذ أبدع من الحروف العربية تكوينات جمالية باهرة، لا تزال باقية على الدهر.

١٠ . تعتمد اللغة العربية في بنيتها الصرفية على الجذور الصوامت التي تحمل أصل المعني وما يضاف إليها من زوائد تؤدي إلى اشتقاق الصيغ على نحو قياسي لا يؤدي في الأغلب الأعرف إلى اختلاف المعنى. من ثم فإن هذا النظام الكتابي أنسب الأنظمة لكتابتها؛ وبناء على ذلك فإن الدعوة المشبوهة إلى كتابتها بحروف لاتينية أمر تأباه طبيعة اللغة العربية.

١١- تتلقى اللغة العربية دعما قويا من مؤسسات حكومية وغير حكومية للتمكين لها وتعزيز مكانتها، والحفاظ على سلامتها، وحمايتها من الأخطار. وصحيح أن بعضا منها لا يقوم بعمله على الوجه المرجو، ولا يزال أثره محدودا حتى الآن؛ لكن هذا لايعني أنه غير موجود. وفي مقدمة هذه المؤسسات مجامع اللغة العربية، والمدارس والمعاهد والجامعات الإسلامية التي تعنى بتنشئة طلابها تنشئة إسلامية تراثية، والمنظمات العربية، ومنها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ألكسو)، ومن مؤسساتها مكتب تنسيق التعريب، والمركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر، ومنها مكتب التربية العربي لدول الخليج، ومن مؤسساته المركز التربوي للغة العربية ومقره الشارقة. فضلا عن الجمعيات الأهلية التي أنشئت لحماية اللغة العربية

وعلى الرغم من هذه المنزلة التي تتبوؤها اللغة العربية بين لغات العالم فهي تواجه في هذا العصر تحديات قاسية لخصها خبراء الأمم المتحدة في تقريرهم عن التنمية الإنسانية العربية فيما يأتي : غياب سياسة لغوية على المستوى القومي، وضمور سلطات المجامع اللغوية، وقلة مواردها، وضعف التنسيق بينها، وتعثر التعريب، والقصور في الترجمة في الحقول العلمية والإنسانية، وجمود التنظير اللغوي، وقصور العتاد المعرفي لدى اللغويين، والعزوف عن العناية بالمذاهب والمناهج الحديثة، وقصور الوعي بدور اللغة في تنمية المجتمع الحديث، والصعوبات التي تثيرها ثنائية الفصحى والعامية، وضعف النشر الإلكتروني باللغة العربية، وقلة البرمجيات المتقدمة فيها، وتكرار مشروعات البحث والتطوير وغياب التنسيق بينها، وتضارب التشخيص للداء الذي تشكو منه اللغة، وغياب رؤية واضحة للإصلاح اللغوي، وعلاقة اللغة نفسها بمنظومة اكتساب المعرفة، والنفاذ إلى مصادرها، ونقلها، واستيعابها، وتوظيفها، ثم توليد المعرفة الجديدة.

يضاف إلى ذلك "العولمة" التي تسعى إلى تعميم نموذج واحد من القيم الثقافية والحضارية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية، تكون أداة التعبير عنه لغة موحدة هي اللغة الإنجليزية. وتكمن الخطورة في أن أبناء العربية يسمحون بتغيير البيئة اللغوية التي تحيا فيها العربية بما تشيعه الإنجليزية في البلاد العربية من أنماط السلوك والقيم، وأنواع الأطعمة والأشربة والملابس والعطور ومستحضرات

التجميل وغيرها، فضلا عما تبثه الفضائيات من أفلام العنف والإثارة، ومسلسلات المواعدة والمراودة التي تملك على الناشئة والشباب أنفسهم، وتتشربها ذواتهم؛ فينزلقون إلى مهاوي القطيعة المرعبة بينهم وبين قيمهم وتقاليدهم وعاداتهم وأخلاقهم، ومن قبل هذا ومن بعده بينهم وبين لغتهم. إن انتشار ثقافة العولمة يعيد تشكيل البيئة الطبيعية التي تحتضن اللغة ويقلقل سكونها، ويستبدل بها بيئة غريبة تعوق أداء اللغة لوظائفها وتعطل نماءها وتجمد تدفق الحياة في شرايينها.

ولا تبذل النخبة المثقفة في البلاد العربية جهدا في ترجمة مصادر المعرفة الأساسية؛ بل يؤثرون استخدام الإنجليزية، ويسوقون لتبرير ذلك حججا واهية لا تثبت على التمحيص؛ بل لقد أصبحت الإنجليزية هي اللغة المستخدمة في تعليم العلوم، وما يتصل بها من مؤتمرات، وندوات، وإنتاج علمي. وتتجلى ازدواجية النخبة المؤثرة في أنها تؤكد من موقع المسئولية أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية للدولة ثم تسمح بإقصائها من مواقعها الأساسية في التعليم والاقتصاد والتجارة والصناعة والتكنولوجيا، ومن ثم من سوق العمل، ومن كثير من مجالات البحث العلمي، لتحل اللغة الأجنبية محلها : الإنجليزية في المشرق والفرنسية في المغرب؛ وهم لا يكتفون بذلك؛ بل ينقلونه إلى أبنائهم ببذل كل نفيس لتعليمهم اللغة الأجنبية، دون أن يلقوا بالا لاكتسابهم العربية، أو ينشئوهم على التمسك بها والحفاظ عليها والاعتزاز بها؛ لتنشأ أجيال تهمل العربية، وتهمشها أو تعبث بها فيما يملأ به الفضاء الإلكتروني بالعربيزي، وبغيره من ألوان التلويث والتشويه اللغوي.

ولعل فيما ذكرناه ما يكفي لبيان منزلة اللغة العربية بين اللغات العالمية ودحض القول بأن اللغة العربية مهددة بالانقراض؛ فللغة العربية من عناصر البقاء الراسخة التي ذكرناها ما يؤكد بقاءها حية قوية بين اللغات الكبرى في العالم؛ لكن من اللازم أخذ التحديات التي تواجهها مأخذ الجد، ووضع السياسات والخطط المستقبلية الكفيلة ببقائها وحيوتها، وهو فرض عين على كل ابن من أبنائها وفي مقدمتهم من يملكون اتخاذ القرار، وحمل الناس على تنفيذه بقوة السلطان.

هذا وبالله التوفيق.